الأهرام

العرب وعالم القرن الحادى والعشرين

من كوسوفا إلى الشيشان

د. خلدون النقيب

عندما خاض الغرب حربا من طرف واحد ضد يوغسلافيا فى كوسوفا، كان يهدف إلى توسعة منطقة نفوذ حلف الناتو شرقا، نحو منطقة نفوذ المعسكر الشرقى السابقة. وعندما تخوض روسيا الاتحادية حربا من طرف واحد فى الشيشان ، فهى تهدف إلى تثبيت منطقة نفوذ روسيا فى إقليم القوقاز، تعويضا عن فقدان منطقة نفوذها فى شرق أوروبا. وعندما تفكر دول الاتحاد الأوروبى فى تشكيل قوة تدخل سريع، خاصة بها منفصلة عن حلف الناتو، فإنها تريد أن تضمن لنفسها حرية الحركة فى الأزمات المقبلة، ضمن حدود الاتحاد الأوروبى، ولاحقا خارج حدود أوروبا الغربية.

جميع تحركات الغرب: داخل حلف الناتو أو خارجه تأخذ فى الحسبان بشكل أساسى علاقاتها بروسيا الاتحادية، وبالعالم العربى، من حيث موقعه الجغرافى الاستراتيجى، ومن حيث موارده المالية، وبشكل خاص من حيث امتلاكه لأكثر من ٦٠٪ من مخزون الطاقة الاستراتيجى، والفارق الأساسى بين العالم الغربى والعالم العربى، هو أن الأخير يفتقر إلى التناسق والانسجام من حيث كونه يمثل تكتلا إقليميا محتملا يتمتع بثقل دولى كبير، بموارده الخاصة أو بقدرته من الناحية النظرية على خلق تكتل إسلامى عريض، أى من الدول الإسلامية، مما يجعله لاعبا دوليا أساسيا.

إن موقع العالم العربى الجغرافى الاستراتيجى مع روسيا الاتحادية يجعله يحيط بالعالم الغربى من ثلاث جهات تمثل حاجزا جغرافيا لوجستيا، يدخل فى حسابات الغرب قريبة وبعيدة المدى. ومن ضمن هذه الحسابات إبقاء العالم العربى فى وضع تنافس ضعيف فى الصراع الدولى. وقد ترسخت هذه المعادلة غير المتكافئة منذ الحروب الصليبية، وبقيت العلاقة بين العالم العربى والغرب متوترة ثقافيا واقتصاديا وعسكريا منذ ذلك الحين.

ونحن لا نتوقع أن تتوقف دورة التنافس والصراع فى العالم، وبين العالم العربى والغرب أمدا طويلا، بالرغم من حالة الاندماج الاقتصادى والمالى فى مرحلة العولمة الحالية، وبالرغم من حالة حسن النيات الظاهرية. بل إننا نتوقع أن تبدأ مرحلة تنافس وصراع بين العالمين العربى والغربى «بما فيه إسرائيل باعتبارها إقليما ملحقا به»، بمجرد توقيع اتفاقيات التسوية فى المنطقة، وبوتيرة متصاعدة ضمن تشنجات مخاض عالم القرن الحادى والعشرين. ومن مؤشرات هذا المخاض الميل إلى عسكرة السياسة الخارجية المتزايدة باستمرار.

التنافس والصراع الدولى فى ظل العولمة

إن الحقيقة الجغرافية المتصلة بموقع العالم العربى والشرق الإسلامى من العالم الغربى كانت - ومازالت -

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

ذات أبعاد استراتيجية أصبحت من المسلمات فى أى تخطيط استراتيجى، صحيح أن معطيات الجغرافيا فى عصر العولمة والاتصالات الإلكترونية والأسلحة المتقدمة تقنيا لم تعد لها تلك الأهمية السابقة. إلا أننى أزعم بأنها تعود بشكل جديد معدل، وهو شكل التكتلات الإقليمية، بدلا من شكل المحاور التى سادت العالم إلى منتصف هذا القرن.

فنهاية الحرب الباردة لم تؤد إلى الانفراج الدولى الذى كان منتظرا، وإنما أدت إلى تقوية وتوسيع حلف الناتو، وهو الآن أقوى تكتل إقليمى عسكرى فى العالم، وأظهرت الحاجة إلى عقيدة عسكرية جديدة للتدخل العسكرى فى مختلف أنحاء العالم لفرض مصالح اقتصادية واستراتيجية تحت مختلف الذرائع. والمدقق فى تركيبة حلف الناتو يدرك سريعا أن منطقة حلف الناتو تمثل منطقة جيوسياسية ترتكز على استمرار فرض هيمنتها على مقدرات العالم.

وهذا سوف يدفع - كما نتوقع - روسيا الاتحادية ومن ثم الصين إلى البحث عن تكتلات جديدة فى الشرق، لخلق توازنات أو تعددية فى مراكز القوى مع الغرب. وبمعنى آخر إلى خلق مناطق نفوذ جيوسياسية تتجه إلى الشرق، بحيث تشمل العالم الإسلامى.

ولذلك فإننا نتوقع أن يقع العالم العربى، بالرغم من مشكلاته الداخلية ومظاهر الضعف التى تعتريه فى الوقت الحاضر، تحت ضغوط شديدة لإعادة صياغة تكتله الإقليمى «المنهار حاليا» على نطاق أوسع من التكتلات السابقة، كمجلس التعاون الخليجى أو المغاربى أو المصرى - الليبى - السودانى، أو إعلان دمشق الذى ولد ميتا. فهناك عدة مشاريع أو أفكار أولية حول تكتلات من هذا النوع مثل: تكتل دول حوض المحيط الهندى، أو الكونفيدرالية الخليجية - الخليجية، أو إحياء السوق الشرق أوسطية بدون إسرائيل، والأرجح بقيادتها.

وفى جميع الأحوال فإن هذه الأفكار تصب فى فكرة التكتلات الجيوسياسية كمرتكز أساسى فى أسلوب إدارة الأزمات والصراعات الدولية القادمة، بصيغتها الجديدة المعدلة. والفكرة الجيوسياسية، كما ذكرنا أعلاه، تعطى للجغرافيا دورا محوريا فى العلاقات الدولية. ونقصد بالجغرافيا هنا اعتبار أن الحدود السياسية الطبيعية، والقدرة على الوصول إلى طرق المواصلات والموارد الطبيعية، أمور ذات أهمية حيوية لبقاء الأمة وازدهارها.

وأفضل تجليات هذه الفكرة هى عقيدة الرئيس مونرو المسماة المصير المعلن «أو المبين» الذى يبرر اعتبار منطقة أمريكا الجنوبية مجالا حيويا للولايات المتحدة ومسئولياتها التاريخية، محظور على الدول الأخرى التدخل فيها. وعلاقة الخليج العربى الخاصة بالولايات المتحدة منذ الأربعينيات هى امتداد طبيعى لعقيدة الرئيس مونرو.

وبشكل مشابه لهذه العقيدة مبدأ ليبنشتراوم النازى الذى استعمل كذريعة لتبرير التوسع الألمانى فى أوروبا. وبشكل مشابه لمبدأ السير والفورد ماكندر، الذى يعتبر أوروبا هى أرض القلب (Heartland) ونقطة الانطلاق للهيمنة على العالم. هذا المبدأ الذى يوفر الأرضية الأساسية لعقيدة حلف الناتو، التى أفصحت عنها البارونة تاتشر بصراحتها المعهودة، عندما اعتبرت حلف الناتو الأداة المثلى لسيطرة أوروبا على العالم.

إن الاعتبارات الجيوسياسية هى ظاهرة تعم العلاقات الدولية وليست مقصورة على الغرب كما ذكرنا. فالعراق يسوغ غزوه للكويت بجعله الكويت مجالا حيويا للعراق يمنحه منفذا بحريا على الخليج العربى. وتوسع الصين فى التبت يمكن أن يبرر على هذا الأساس، وكذلك الحرب الدائرة الآن فى الشيشان ، يمكن أن تفسر فى سياق هذه الفكرة، الذى يعنينا بشكل خاص، هو أن علاقة العالم العربى بالغرب فى المستقبل سوف تتمحور حول قدرة دول العالم العربى على خلق تكتل إقليمى واسع جديد، يكون أكثر كفاءة فى الدخول فى دائرة التنافس والصراع الدوليين.

إن صيغة المناطق الجيوسياسية السائدة الآن فى ظل العولمة تختلف عن الصيغة القديمة. هذه الصيغة تتمثل فى تكتلات من الدول القومية أو الوطنية التى تتكون بناء على قدر من الاتفاق على:

١ - مصالح اقتصادية مشتركة وأهداف مشتركة للسياسة الخارجية.
٢ - تعزيز تدابير بناء الثقة ومراقبة التسلح.
٣ - تطوير آليات الدبلوماسية الوقائية.
٤ - تأسيس آلية لحل النزاعات والصراعات.

ويجب أن يكون واضحا أن هذه التكتلات لا تقوم إلا فى حالة وجود دولة أو كتلة مركزية تلعب دورا راعيا لقيام التكتلات الأوسع: ألمانيا وفرنسا فى أوروبا، اليابان والولايات المتحدة فى تكتل الأسيان، والولايات المتحدة فى تكتل النافتا ومنظمة دول الأمريكيتين.

هل هناك متسع لتكتلات إقليمية جديدة؟

إن هناك الكثير من الدلائل التى تشير إلى احتمال قيام تكتلات إقليمية جديدة، فى وسط آسيا، وفى المنطقة العربية، وفى وسط وجنوب إفريقيا، وفى حوض المحيط الهندى. وقيام تكتل إقليمى فى المنطقة العربية يوفر مناخا ووضعا تنافسيا أفضل مقابل قوى العولمة. وحالة التمزق التى تعيشها المنطقة العربية بعد الغزو العراقى للكويت، هى مرحلة عابرة انتقالية. لكنها مرهونة بمدى استعداد النخب الحاكمة الجديدة التى ستصل إلى الحكم على التكيف مع الأوضاع المستجدة، وهذا الحكم ينطبق على روسيا أيضا «وهى الدولة المرشحة لتبنى تكتل إقليمى جديد» بالرغم من حالة الضعف التى تعانيها الآن، التى تدفعها إلى اتباع سياسة حمقاء فى القوقاز.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

لكن الدلائل التى تشير إلى احتمال قيام تكتلات جديدة لم تنضج بما فيه الكفاية، ولم تتضح علاقاتها بالتكتلات القائمة الآن، فقد ذكرنا مشروع بريماكوف الذى يدعو إلى خلق تحالف إقليمى مكون من روسيا الاتحادية وإيران والهند. وأدعو إلى عدم التسرع فى الحكم بالفشل على هذا المشروع الذى لم تعرف تفاصيله، والذى لعبت الهند فيه دورا سلبيا، مما أدى إلى تجميده، ثم إلغائه عندما ترك بريماكوف منصبه.

وهناك مشروع أربكان الذى حاول خلق تكتل إسلامى مكون من أكبر ثمانى دول إسلامية من حيث السكان، الذى فشل أيضا بسبب إسقاط العسكر المعتنقين لعقيدة حلف الناتو، لحكومة أربكان، وقد طرحت فكرة إنشاء كونفيدرالية خليجية من قبل قطر، ربما تكون نواة لتكتل إقليمى أوسع كالتكتل المقترح للدول المطلة على حوض المحيط الهندى.

إن هذه المؤشرات تدل على أن هناك إحساسا لدى النخبة فى دول العالم العربى والإسلامى، خاصة فى منطقة الشرق الأوسط بعدم كفاية التنظيمات الإقليمية الحالية فى مواجهة قوى العولمة، وأن هناك ضغوطا متزايدة عليها لتحسين وضعها التفاوضى فى المجتمع الدولى. ولذلك فإن هناك اتجاها عاما نحو خلق تكتلات إقليمية تمثل مناطق جيوسياسية فى صيغة معدلة، أكثر مرونة من الصيغة التقليدية فى التعامل مع مستجدات الأوضاع الدولية.

إن قوى العولمة لا تؤدى فى الوقت نفسه إلى تأكيد المحلية، وإنما إلى ظهور تكتلات إقليمية جيوسياسية، تكون فيها الدول الإمبريالية راعية لهذه التكتلات بأشكال مختلفة، وبفضل هذه التكتلات فإن العالم فى تقديرنا، مقبل على تعددية اقتصادية «أشكال مختلفة من الرأسمالية» وتعددية سياسية «تعبيرات مختلفة من النظم الدستورية» لا تستجيب بالضرورة إلى نمط واحد ـ كما كان متوقعا ـ من رأسمالية السوق والمنافسة الحرة، ولا نمط واحد من عالم أحادى القطب، تسيطر عليه قوة عالمية واحدة.

لكن مع الأسف الشديد، فإن هذا العالم يتجه بشكل متزايد إلى عسكرة السياسة الخارجية، أى الميل إلى حل النزاعات المحلية والإقليمية، باللجوء إلى العنف المسلح، الأمر الذى يدفع الدول المهيمنة على مقدرات العالم إلى تكوين قوات تدخل سريع، وإلى تطوير تقنيات أسلحة لما يسمى بـ «النزاع المسلح المحدود» ■

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية